القافية

القافية هي منبه صوتي مكمل للنظام الإيقاعي، يلفت عناية المستمع ويشد انتباهه، لكونه يحدث نغما موسيقيا يتدفق بشكل انسيابي جمالي له جرس يستولي على السمع، ويسهم في تحقيق التآلف والتناسق، وإضفاء التماسك على بناء النص الشعري.

وتؤدي القافية وظيفة جمالية بتواترها المتتابع، بما يحدث نوعا من الاسترسال، إذ تعمل على بعث ديمومة النص، وتشعر المتلقي بلذة الانتظار المسبق إذا كانت موحدة، فتشده بترجيعاتها النغمية المكررة، أما إذا كانت منوعة فهي تحقق صدمة جمالية ومباغتة فجائية تتأتى من كسر أفق التوقع، ومن ثمة فالقافية عنصر هام يتفاعل مع عناصر الإيقاع الأخرى لإنتاج دلالية خاصة تبوح بشحنات الانفعال الداخلي.

ولما كانت القافية تتمتع بهذه الأهمية البالغة، فإن تحول شكل القصيدة من العمودي إلى التفعيلة لم ينه فاعليتها، وبالرغم مما دعا إليه رواد الشعر الحر من تحرر إلا أنهم أثبتوا مكانتها؛ فقد كتب السياب منكرا على الشاعر عبد الكريم الناعم تخليه على القافية «كان في الإمكان أن يتضاعف أثر صوتك وأفكارك وعواطفك على النفس لو كانت قصيدتك مقفاة»، فالسياب من أعداء التفلت من القافية، إذ عدها قيمة صوتية قارعة معبرة عن الشحنات العاطفية والانفعالية، وبالمثل تعترف نازك الملائكة بأهمية هذه الحزم الصوتية في قولها: «ومهما يكن من فكرة نبذ القافية وإرسال الشعر، فإن الشعر الحر يحتاج إلى القافية احتياجا خاصا؛ وذلك لأنه يفقد بعض المزايا الموسيقية المتوفرة في شعر الشطرين الشائع»، والواضح أن إسقاط القافية لا يتوقف عند النيل من النغم الموسيقي -كما ذهبت نازك - بل يتعداه إلى ضرب المعنى وهدم التجربة الكشفية، بما يحدث خللا في توازن البنية النصية.

أولا: مفهوم القافية :

جمع الخطيب التبريزي بين تعريف الخليل والأخفش للقافية فقال: «والقافية قد اختلفوا فيها، فقال الخليل: هي من آخر البيت إلى أول ساكن له مع المتحرك الذي قبل الساكن، وقال الأخفش: هي آخر كلمة في البيت أجمع، وإنما سميت قافية لأنها تقفو الكلام أي تجيء في آخره، ومنهم من يسمي البيت قافية، ومنهم من يسمي القصيدة قافية، ومنهم من يجعل حرف الروي هو القافية.

وفقا لما ورد يمكننا القول إن الأخفش قد ربط تعريف القافية بالجذر اللغوي، ثم جعلها تبدأ بالروي لتصبح القصيدة، وهذا لا يمثل مفارقة، إذا ما اعتبرنا أن القافية هي عنصر لإحداث الانسجام، فإذ قلنا القافية قصيدة، فكأننا قلنا القصيدة انسجام.

أما إبراهيم أنيس فيرى أن القافية هي: «عدة أصوات تتكرر في آخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية. فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد... ومن الواجب ألا تحدد القافية في أطول صورها، وإنما الواجب أن يشار إلى أقصر تلك الصور. وإلى أقل عدد من الأصوات يمكن أن تتكون منها، هذا يعني أن القافية تشكل نسقا صوتيا تتكرر فيه الأصوات بشكل مخصوص، وهي مقاطع صوتية يحدث ترديدها نغما جماليا، وتؤدي وظيفة إيقاعية ولحنية، لما تحدثه الفواصل الصوتية من أثر نغمي يطرق السمع، فيلفت انتباه المتلقي،

حروف القافية وحركاتها:

ثالثا: أنماط القوافي

اتخذت القافية في الشكل العمودي نمط التماثل فكانت قافية موحدة، لكنها لم تحتفظ بنظامها التقفوي التناسبي في القصيدة العمودية، وانتقلت بفضل ما حدث من مد حداثي في النص المعاصر لمقاييس جديدة اخترقت وحدة المسافة الزمنية المنتظمة في النص العمودي، لرفع حرج التكلف والتوجه نحو الاهتمام بالفكرة التي تنسجم والدفقة الشعورية.

وهذا التطوير في النظام التقفوي سمح بتعدد الأنماط وفقا لمستويات الأداء، وهو ما وافق تنوع المهام الوظيفية، التي يؤديها النظام التقفوي بسبب انتهاء سلطة الوصاية، التي أقيمت على الشاعر القديم:

أهم أنماط التقفية في القصيدة العمودية بحسب علاقتها بالوزن هي:

القافية المتكاوسة: يفصل بين ساكنيها أربعة متحركات ورمزها (///0)

القافية المترادفة:

هي كلّ لفظِ قافيةٍ توالى ساكناه بغير فاصلٍ (/00)

القافية المتداركة:

هي كلّ لفظِ قافيةٍ فصَلَ بين ساكنيه حركتانِ متواليتان (/0//0)،

يقول الشاعر:

أنـــت الحبيـــــــبُ الأوَّلُ ولَكَ الهَوى المُستقبَلُ

0//0/0/ 0//0/// 0//0/0/ 0//0/0/

القافية المتواترة:

هي كل لفظِ قافيةٍ فصَلَ بين ساكنيها حركة واحدة (/0/0)، والظاهر أن تسمية التواتر نتجت عن توسط الحركة بين الساكنين

يقول الشاعر:

ترى الأجساد تحسبها ســـــماناً وفي الميزان أكثرها ذئـــــــاب

//0/0/0 / /0///0 //0/0 //0/0/0 //0///0 **//0/0**

القافية المتراكبة:

هي كل لفظ قافية فصل بين ساكنيه ثلاث حركات متوالية (/0///0)

قد يدرك المتأنِّي بعض حاجـــــــــــته وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلل

/0//0/0 /0/// /0//0/0 /0/// //0/0 /0/// /0//0/0 **0/// 0**

التقفية المختلطة:

تميزت بعض قصائد الشاعر بهذا النوع من التقفية، والاختلاط يمس تواتر التقفية بأنواع عدة، إذ لا تخضع لقانون موحد، بل يتم توزيعها توزيعا عفويا

حروف القافية:

الروي: هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وتنسب إليه فيقال لامية الشنفرى وسينية البحتري ونونية أبي البلقاء

الوصل: هو إما حرف ساكن ناشئ عن إشباع حركة الروي، فينشأ الواو عن الضمة والألف عن الفتحة، والياء عن الكسرة ، وإما هاء ساكنة أو متحركة تلي الروي المتحرك .

الخروج: هو الساكن الناشئ عن إشباع حركة هاء الوصل وهو إما واو بعد الضم أو ألف بعد الفتح وإما ياء بعد الكسر

مثال ذلك قول الشاعر:

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه(ي)

الردف: هو حرف مد قبل الروي، وهو إما ألف، وإما واو، وإما ياء

تواضع المرء ترفيع لرتبته وكبره ضعف من غير ترفيع (ي قبل العين)

التأسيس:

وهو ألف لازمة بينها وبين الروي حرف واحد متحرك(الدخيل)

الدخيل: وهو الحرف المتحرك بين ألف التأسيس وبين الروي

عيوب القافية:

على الشاعر أن يلتزم في قافيته التي يختارها حروفا معينة، وحركات معينة وإن أخل بأحد هذه الحروف أو الحركات فإنه يقع في إحدى عيوب القافية وهذه العيوب متعددة أشهرها:

التضمين: ومعناه ألا يستقل البيت الواحد بمعناه، ويأتي البيت الثاني مكملا لمعنى البيت الأول:

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صادقات شهدت بهم بحس الظن مني

الإقواء: ومعناه اختلاف المجرى والمجرى هو حركة الروي المطلق بكسر وضم

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير

كأنهم قصب جفت أسافله مثقب نقحت فيه العصافير

السناد: اختلاف ما يراعى قبل الروي من الحروف والحركات وهو نوعان:

سناد التأسيس: وهو أن يوجد حرف التأسيس (الألف) في بعض أبيات القصيدة ثم يغيب في بعضها الآخر

شهيرة يا أخـــــــــــــتنا الغالية عـــــــــــــرفناك ثرثارة لاهـــــية

إذا نمت حل الهدوء الجميل وإذا قمت حلت بنا الداهية

فيا ويح زوجك من رفـــــــــقة يذوق بها العيشة المضنية

سناد الردف: وهو أن يوجد الردف في بيت ويغيب في بيت آخر والردف هو حرف مد يقع قبل حرف الروي.

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسل طبيبا ولا توصه

وإن بات أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

الإيطاء: وهو إعادة كلمة الروي بلفظها ومهناها بعد بيتين أو ثلاثة إلى سبعة أبيات فهذا يدل على افتقار الشاعر لمفردات اللغة.

الإجازة:

وهي مجيء رويين مختلفين متباعدين في اللفظ ومثاله قول الشاعر:

خليليَّ سيرا واتركا الرّحل إنني بمهلكة والعاقبات تدور

فبيناه يشري رحله قال قائل لمن جملٌ رخو المناط نجيب

الإصراف: وهو اختلاف حركة الرويين اختلافا بعيدا مثاله قول الشاعر:

ألم ترني أني رددت على ابن بكر منيحته فعجلت الأداء

فقلت لشاته لما أتتني رماك الله من شاة بداء

الإكفاء: اختلاف الروي بحروف متقاربة المخارج كقول الشاعر:

قبحت من سالفة ومن صدغ

كأنها كشية ضب في صقع